المحاضرة العاشرة نظرية التلقي

د: رويدي عدلان

تمهيد:

عرفت مرحلة الستينيات من القرن الماضي تحوّلات جوهرية وجدرية في مسار الحركة النقدية العالمية، وجاء هذا في إطار التحولات الفكرية والمعرفية التي شهدتها أوروبا خصوصا بعد مظاهرات 1968 في فرنسا، التي غيرّت مجرى الوعي والفكر لدى الفرد الفرنسي والأوروبي، وقد سميت هذه المرحلة مرحلة ما بعد البنيوية، حيث شهدت الدراسات النقدية انتقالا من مرحلة المناهج النسقية إلى ما يعرف بالمناهج القرائية، التي تعدّ نظرية التلقي أحد إفرازاتها حيث ولدت من رحم هذه الهزات الفكرية، وكرّستها مجموعة من الفلسفات والنظريات المعرفية كان موطنها الأصلي ألمانيا وبالضبط في مدينة فرانكفورت، التي احتضنت فلاسفة الاختلاف، وهيأت الجوّ المناسب لهم من أجل الخروج من المأزق الحضاري الذي وصل إليه الانسان الأوروبي في عصر التقنية أو العقل الأداتي باصطلاح أحد أعلامها وهو يورغان هابرماس.

وفي ظل هذه المعطيات ظهر فتح منهجي نقدي جديد يمثله أعلام كبار من النقاد في ألمانيا انتقلوا بالنقد الأدبي من حقل المناهج النسقية إلى حقل المناهج القرائية، التي تجعل من القارئ الحكم والرئيس في تأويل معاني النص وانتاج دلالته، فكان الفضل لهؤلاء العلماء في جامعة ك ونستانس الألمانية الذين عنوا بالتنظير لجمالية التقبل (L,Esthaetique de la reception)، والكشف عن الطريقة التي يتمّ بها تلقي الآثار الأدبية [1]

1الأصول الفلسفية والمعرفية لنظرية التلقي- :

لا يمكن لأي نظرية مهما كانت أن تولد من فراغ، ولكن أسهم في تشكّلها مجموعة من الترسبات والتراكمات المعرفية والفلسفية، وهذا ما ينطبق على نظرية التلقي، التي أرست مبحثا جديدا في النقد الأدبي، وشكّلت توجّها منهجيا في فهم النصوص وقرائتها.

وتعتبر الفلسفة الظاهراتية من أهمّ الفلسفات التي شيّدت معمار هذه النظرية، وذلك بالاستناد لأفكار وتصورات إيدموند هوسرل E.Husserl وتلميذه رومان إنغاردن R.Ingardenالتي كان لها تأثير فاعل في الفلسفة والنقد الألمانيان خصوصا حول تصوّر فكرة المعنى في أصوله وكيفية إدراكه، فهو أكثر عمق ويفرض جملة من الشروط، فالمعنى الموضوعي عند هوسرل ينشأ بعد أن تكون الظاهرة معنى محضا في الشعور أي بعد الارتداد من عالم المحسوسات الخارجية إلى عالم الشعور الداخلي الخالص ويعني هذا أنّ إدراك معنى الظاهرة قائم على الفهم، ونابع من الطاقة الذاتية

[1] بسام قطوس :المدخل إلى مناهج النقد المعاصر، ص167

الخالصة الحاوية له، وهذا ما يصطلح عليه(التعالي)فالمعنى هو خلاصة الفهم الفردي الخالص[2].

في حين نجد إنجاردن تلميذ هوسرل عدّل في مفهوم التعالي فجعله ينطوي على بنيتين:

إحداهما ثابتة، نمطية، وهي أساس الفهم عنده، والأخرى متغيرة، مادّية، تشكّل الأساس الأسلوبي للعمل الأدبي، والمعنى عنده، على خلاف ما هو عند هوسرل لا يتشكّل إلا بالتفاعل بين البنيتين :فعل الفهم وبنية العمل الأدبي [3]، وهذا يفرض عنصر القصدية الذي أصبح فيما بعد المفهوم المركزي لما يعرف بمقاربة(التفاعل الأدبي) في اتجاه جمالية التلقي[4]، والى جانب الفلسفة الظاهراتية وفلسفة هوسرل وانجاردن استفاد أصحاب نظرية التلقي من هانس جورج غادامير في نظرته إلى التأويل وعمل الفهم واعادة الاعتبار إلى (التاريخ)في إعادة إنتاج المعنى وبنائه من خلال مصطلح الأفق التاريخي في تفسير التاريخ حيث لا يكون ثمّة تحقق خارج زمانية الكائن لا تسمح باندماج الأفق الحاضر بالأفق الماضي فتعطي للحاضر بعدا يتجاوز المباشرة الآنية ويصلها بالماضي، وتمنح الماضي قيمة حضورية راهنة تجعلها قابلة للفهم [5]ووفق هذا المنظور تتمّ عملية فهم التاريخ، ومعه يتمّ فهم النصوص الأدبية التي لا تختلف بأيّ حال من الأحوال عن التاريخ إلاّ في عنصر التخييل مادامت تستثمر المادّة التاريخية لتشكّل معماريتها السردية.

2إشكالية المصطلح الاستقبال/التلقي- :

لا يمكننا البحث في مقولات نظرية التلقي وتحليلها وشرحها، دون الوقوف على المصطلح ذاته في أبعاده الدلالية ومرجعياته الثقافية التي أنتجته، سواء في ألمانيا أو أمريكا، فهذان المصطلحان لا يحيلان على مفهوم واحد، بل لا ينتميان إلى بيئة واحدة، فنظرية الاستقبال ولدت في النقد الأمريكي الحديث ضمن ما يعرف ب(النقد الأنجلو أمريكي)، ويتحدد- مجموعة من النقاد من أهمّهم(:جوناثان كيلر، ونورمان هولاند، وديفيد بليش، ومايكل ريفاتير)، أمّا نظرية التلقي فقد ولد في ألمانيا، منبثقة بشكل مباشر من معطيات الظاهراتية والتأويلية، ومن أهمّ من مثّلها(:آيزر، وياوس، وفيش[6]، فالبيئة التي ولد فيها كل مصطلح تختلف من حيث الأصول والمرجعيات الفلسفية والثقافية التي احتضنت كل منهما، ومن ثم فالمنطلقات المنهجية التي تخص كل اتجاه منهما تختلف هي الأخرى، ولكن يبقى الجامع بينهما هو إعطاء الاهتمام للقارئ في عملية فهم النص وتأويله ومن ثمّ إنتاج الدلالة.

---

[2] بشري موسى صالح :نظرية التلقي أصول وتطبيقات، المركز الثقافي العربي، بيروت الدار البيضاء، ط 2003

[3] .بسام قطوس :المدخل إلى مناهج النقد المعاصر، ص163

[4] .بشري موسى صالح :نظرية التلقي أصول وتطبيقات، ص36

[5] .بشري موسى صالح :نظرية التلقي أصول وتطبيقات، ص38-39

[6] .محمد سالم سعد الله :سجن التفكيك الأسس الفلسفية لنقد ما بعد البنيوية، ص96

3ياوس ومفهوم أفق الانتظار- :

من المفاهيم المحورية والأساسية التي تحضر ضمن المعجم النقدي لأصحاب نظرية التلقي الألمانية، والتي تشكل محور اهتمامهم، نجد مفهوم أفق الانتظار، الذي يعدّ هذا المفهوم إعادة استنطاق وصياغة لمفهوم الأفق التاريخي لدى غادامير، حيث يمثل أفق انتظار القارئ الفضاء الذي تتمّ من خلاله عملية بناء المعنى ورسم الخطوات المركزية للتحليل ودور القارئ في إنتاج المعنى عن طريق التأويل الأدبي الذي هو محور اللذة ورواقها لدى جمالية التلقي[7]، وهذا الأفق هو الذي يوجّه عملية القراءة، وهو يختلف من قارئ لآخر، كما يختلف أفق القراءة في أزمنة مختلفة، فالقارئ الذي قرأ المعلقات في العصر العباسي يختلف عن القارئ الذي قام بتحليلها في العصر الحديث، فلكل قارئ أفقه الخاص ومقاييسه الجمالية في الحكم على الأعمال الأدبية، ومن هنا فمصطلح الأفق مهم جدا لدى أنصار نظرية التلقي خاصة في توجيه عملية الفهم وتحديد الأفق التأويلي للنص الأدبي.

والى جانب أفق الانتظار يضيف آيزر إلى هذا المفهوم فكرة حيوية أخرى فيما يطلق عليه "نقطة الرؤية المتحركة "وهي فكرة ضرورية للتوصيف الدقيق لعملية التلقي الأدبي، فالنص ليس سوى مجرّد افتتاحية للمعنى[8]، لتبقى رحلة القراءة مستمرة عبر مراحل عديدة من أجل إنتاج معاني جديدة في كل لحظة من لحظات فهم الموضوعات التي تثير الجمال.

4ولفجانج آيزر والقارئ الضمني- :

لا تبتعد مقولات آيزر عن مقولات زميله ياوس، حيث تجتمعان معا لتشكلان ما يعرف بنظرية القراءة، فالقارئ هو المحور الأساسي لدى الناقدان، وهو الموجه لعملية للفهم، وقد ابتكر آيزر مفهوم القارئ الضمني الذي يخلقه النص لنفسه، ويرقى إلى شبكة من البنى التي تستدعي الاستجابة، ويتحتم على وعي القارئ وفقا لتحديد آيزر أن يقوم ببعض التعديلات الداخلية لكي يتلقى ويستوعب الآراء الغريبة التي يقدمها النص حين تتم عملية القراءة بمعنى أنّ القراءة تعطينا الفرصة لصياغة ما ليس مصوغا[9] ، وتمنح القارئ فضاء للتوقع والاحتمال فيتم إعادة تشكيل الأفق القرائي للنص الأدبي، ويفتح أفق تأويلاته ممّا يخلق فهوم متعددة لهذا النص الذي ينفتح بشكل نهائي، وهذا بفضل القارئ الذي يمثل نقطة رؤية متحركة داخل ما يجب عليه تأويله هذا ما يحدد فهم الموضوعات الجمالية في النصوص الأدبية [10]، ومنه فالقراءة كفعل وكممارسة نصية يكون الطرف الرئيسي فيها القارئ الضمني، الذي لا يمتلك وجودا فعليا لكنه يوجه

---

[7] .بشري موسى صالح :نظرية التلقي أصول وتطبيقات، ص 45

[8] صلاح فضل :مناهج النقد المعاصر، ص 150

[9] محمد سالم سعد الله :سجن التفكيك الأسس الفلسفية لنقد ما بعد البنيوية، ص 98

[10] .صلاح فضل :مناهج النقد المعاصر، ص150

عملية القراءة، ويصنع آفاقا جديدة في عملية فهم النص وتأويله، هذا النص الذي لا يكتمل إلاّ من خلال القارئ، الذي يبث فيه من روحه فيعيد اخراجه في شكله النهائي.

وهكذا يكون هنالك تفاعلا إيجابيا بين النص والقارئ، بحيث يتبادلان الأدوار فيما بينهما،وهذا التفاعل هو الذي يخلق تعددا في المعنى داخل النص الأدبي ويجنه القراءة الأحادية،كما يصنع متعة القراءة في النهاية ويخلق الأفق الجمالي للنص الأدبي.

5القراءة كفعالية وممارسة جمالية من منظور أنصار نظرية التلقي- :

إذا كان النص الأدبي عبارة عن بنية لغوية متجسدة عن طريق الكتابة، فهذا يستدعي حتما وجود قارئ يتلقى هذا النص فيعيد تشييده وبناء هندسته، و القراءة بهذا الشكل ليس لها دور سلبي ينتهي في الأخير إلى قتل النص، وانما تعيد بناء النص من جديد وتبث فيه روحا فعل، والقارئ فاعل، يتعدّى الفعل عبر جسد » أخرى، وبهذا الشكل من التعبير تبدو القراءة «النص الذي تشيده الألفاظ، مخترقا سطحها، بحثا عن أعماقها [11]، وبهذا الشكل تتوالد قراءات جديدة ويتم إنتاج المعنى من قبل المتلقين، الذي يختلفون من حيث الأفق المعرفية والثقافية، فتتمايز قراءتهم أيضا، وهكذا تصبح القراءة مغامرة ورحلة في جغرافية النص، حيث تتبع بنياته اللغوية ووظائفها الجمالية، التي صنعت ف ا ردة هذا النص وتميزه، وهذه المغامرة على ما فيها من متعة ولذة، إلى أنها تحمل العديد من المخاطر والملق، التي يمكن أن توقع القارئ في شراك سوء الفهم، فيظل الطريق نحو المعنى، فرحلة القراءة شاقة ومتعبة، وتتطلب وعيا خاصا من قبل المتلقي، وامتلاكا لأدوات إجرائية ومنهجية تساعده في فهم النص، إضافة إلى حضور مجموعة من الخب ا رت الأخرى، التي تعين على تفكيك الظواهر المختلفة، والتوغل في ثنايا الخطابات الأدبية وتفكيكها، كالإدراك والذاكرة والإحساس

والوعي، وهنا تظهر براعة المتلقي وخبرته ومراسه التطبيقي، الذي يمكن أن يميزه عن باق المتلقين العاديين، فيعيد تفكيك مختلف الرموز والشفرات الموجودة في النص، لينتج نصا جديدا ويحقق في الأخير متعة القراءة .

[11] .بسام قطوس :المدخل إلى مناهج النقد المعاصر، ص122